باق بيننا

اقامت الندوة اللبنانية في الساعة الخامسة من بعد ظهر امس حفلة تذكارية للمرحوم ميشال شيحا تكلم فيها عدد من ادباء لبنان وشعرائه وننشر فيما يلي كلمة الاستاذ محيي الدين النصولي في الحفلة :

جلست اليه آخر مرة في دارته القائمة فوق ربوة من ربى بيروت يكسوها الشجر ، ويبسم فيها الزهر وتطل على هذا البحر الذي احب وملأ حبه قلبه الكبير ، وكان السكون يعمنا ، والطمأنينة تلفنا ، وكان هادئا على عادته يصغي اكثر مما يتكلم ، ويفكر ويطيل التفكير ، وكانت عيناه تلمعان وراء نظارتيه وكأنهما قبس من نور الله ، وكان وجهه تتمثل فوق قسماته السكينة ، وما هو اجمل من السكينة ، الرضى بالطف معانيه ، واحلى صوره وكان حديثنا همسا يكاد لا يسمع ، فالرجل الذي اساقطه الحديث لايحب التحدث بالصوت المرتفع ، فالصوت المرتفع يمجه المفكرون امثاله الذين ارقهم الدرس الطويل ، والبحث العميق ، والخلوة بينهم وبين انفسهم ، وبينهم وبين الكتاب ، والقعود ساعات ونهارات وليالي مع الطبيعة اللبنانية الفتانة يناجيها وتناجيه ، فيتفاعل جمالها مع جمال نفسه ، ويرى من خلالها الله الذي خلق كل شيء فاحسن خلقه ، فاذا هو رجل من رجال الفكر يمشي على الارض هونا واذا خاطبه الجاهلون قال سلاما .

جلست الى ميشال شيحا قبل ان ينام نومته الاخيرة بايام قلائل ، وافضيت اليه بما في نفسي ، ولم اخف عليه العبء الثقيل الذي اكاد انوء به وانا اتسلم تبعات وزارة المالية ، فسلط اضواء حكمته على هذا الطالب المستطلع الذي جاء يسعى اليه يفتش عن الحكمة ، فاحس عند نهاية اللقاء ، وكان لقاؤنا اللقاء الاخير ، بان العبء الثقيل الذي يحمله تضاءل وتضاءل ليصبح هباء ، فاذا بي وانا اودعه ازهى شبابا ، واخف حركة واشد ايمانا اني بالغ المحجة في خدمة هذا الوطن الصغير ـ لبنان ـ

وروعت يوم انبئت انه استسلم للرقاد الطويل ، وشعرت ان لبنان فقد مفكرا كان يجب الا ينام ولكن مشيئة الله كانت هي الاقوى ، فرقد ميشال شيحا لان ساعة النوم دقت ، وهو لم يعتد ان يقاوم مشيئة الله .

وجاءني كتابه الاخير Plain Chant نابضا بحكمة ، حيا بافكاره ، مهدى الى من شريكة حياته ، يحمل عبارتها الرائعة انقلها وانا فخور بها : « كان في نيته اهداء هذا الكتاب اليك من قبل ان « يرين على النعاس اجفانه » . فعاودني الامل ان ميشال شيحا لايزال بيننا يسدي الينا النصح ، لنا ان نعمل به ولنا الا نعمل به فالمفكر العبقري يقول كلمته ، ويترك لك حرية الاخذ بها . الم يكن ميشال شيحا ذلك المفكر العبقري لايحمل موجدة على من يخالفه في الرأي ، فالرأي عنده مقدس سواء اكان يقره ام لايقره .

كان يفضل ان يجتاز في الطريق الصعب الذي يطل منه المفكر في النهاية على الافق البعيد ، على الابد ، فالطريق السهل لايؤدي الى شيء يصلح ان يكون شيئا يذكر ، ذلك ان الطريق السهل طريق السواد الاعظم ، وميشال شيحا من المختارين .

وكانت الحقيقة غايته يفتش عنها في الليل والنهار ، فالجمود في الشك ، والتأرجح في الريبة هما بمثابة الهرب في ليل دامس غابت نجومه ، ولكن كلما كان ايماننا متينا اننا بالغو الحقيقة ، تفجر الحب وتدفق ، وامتزج الايمان بالحب ، فنفوز على كل شيء حتى الموت ، ونسجل انتصارات لا بالعنف ، بل بقوة الروح ، وبالقدرة

ـ البقية على الصفحة الرابعة ـ

(تتمة) باق بيننا...

الحسنة ·

ولبنان اوجده الله روابى وذروات لننشد فوقها الحقيقة وصفاء الذهن الذى يساعد على اكتشاف الحقيقة ، فمن فوق الجبل تبدو لنا الافاق مديدة ويبدو البحر وسيعا ، فيلازمنا الاعتدال والاعتدال صفة لبنانية ، ويلازمنا الحب ، والحب هو المعين الذى يجب ان يرده اللبنانيون ·

وعشت معه فى كتابه الاخير الذى رآه مقالات تنشر فى جريدته «ليجور» منذ عام ١٩٤٦ حتى نهاية عام ١٩٥٣، ورأينا كتابا يضم الفكر ، الفكر البناء الرفيع ، فاذا قلبه الكبير الذى توقف عن الخفقان نلمسه فى اغانى هذا الوجود الرائعة وفى موسيقى الذكرى المنسجمة ·

عشت معه ، فى جوه ، وفوق الذروات التى كان يحبها · ويجب ان يفكر فوقها لايهمه ان كانت السماء صافية الاديم ، او كانت ملبدة بالغيوم، فالمهم ان تتطهر انفسنا ، وان تتصعد على اجنحة الملائكة نحو السموات العلى، نحو الحقيقة التى تحررنا ، والتى مهما نتعثر ، ونحن ننشدها ، فلها البقاء ولها الخلود ·

حياتنا ما هى حياتنا سوى انطلاق جديد فى كل يوم لايدرى احدنا ما اذا كان سيلقى الاخر ، فاذا بنا عندما يتخطف الموت صديقا عزيزا علينا ، تمور الذكريات فى صدورنا فجأة فتتجلى امامنا الحياة بعبثها وعبثنا ، ويواجهنا الموت بيده القاسية، فيسقط القناع عن ابصارنا ، واذا طيبات هذه الحياة وكنوزها هباء، واذا الدنيا متاع الغرور ·

والراحلون سواء اتعودنا غيابهم ام لم نتعود فانهم على الرغم من هذا وذاك يرحلون ، الربيع يعود ، وشقائق النعمان تتفتح والحقول مهما تكن متواضعة تزخر بالازهار ، وفى هذه الاثناء تغادرنا وجوه حبيبة ،والانسانية تتجدد لانه محظور على الانسانية ان تجمد ، فمصيرها هو هذا التجدد المستمر ·

لكل رحلة تقصر او تطول فترة وداع ولكن الوداع الاخير يفاجئك فلا يسمح لك حتى ان تتمتم بكلمات الوداع ·

واذا لم يتح لنا ان نودع ميشال شيحا الوداع الاخير فلأن ميشال شيحا لم يرحل عنا الا بجسده وان افضل ما فيه روحه وفكره وهما لا يزالان ينبضان بالحياة وسيظلان كما حلم لحنا فى انشودة اللانهاية ·